القراءات المعاصرة للقرآن الكريم: إشكالية التقويم والتلقي

ذ./ عبد العزيز بوزيان
باحث بسلك الدكتوراه
المغرب

ملخص البحث:

في ظل المشكلات الكثيرة التي يعرفها المجتمع الإسلامي سياسيا واقتصاديا، والتحديات التي يواجهها علميا واجتماعيا، والتي تفرض تجديدا في المناهج، يمكّن من تجاوز الوضع ويحقق استئنافا حضاريا، يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على قضية بالغة الأهمية وهي القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، والتي تستمد أهميتها من ارتباطها بمناهج تفسير القرآن الكريم، كلام الله تعالى، وما يثار حولها من مشكلات علمية ومنهجية تكون أحيانا غاية في الخطورة، محاولين وضعها تحت ميزان النقد والتقويم، والبحث في أسباب انحرافها وسبل معالجة هذه المشكلات، وذلك بالتركيز على القراءة المقاصدية للقرآن الكريم كمستوى مهم من مستويات القراءة، في علاقة بنظرية التلقي كمقاربة يمكننا الاستفادة منها في تطوير مناهج تفسير القرآن الكريم.

- **الكلمات المفاتيح:** القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، نظرية التلقي

Abstract:

under the many problems that the Islamic community knows politically and economically, and the challenges it faces scientifically and socially, which imposes a renewal in the curricula, which has managed to overcome the situation and achieve a civilized appeal, this research seeks to shed light on a very important issue, which is the contemporary readings of the Holy Qur'an, which derives its importance From its association with the curricula of the interpretation of the Noble Qur'an, the word of God Almighty, and the scientific and methodological problems that are sometimes raised that are extremely dangerous, trying to put them under the balance of criticism and evaluation, and to search the reasons for their deviation and ways to address these problems, by focusing on the Maqasid reading of the Holy Qur'an as an important level of Reading, in a relationship with the Reception theory as an approach that we can benefit from in developing the curricula of the interpretation of the Holy Quran.

Key words: Contemporary readings of the Holy Qur'an, Reception theory.

مقدمة:

يعاني المجتمع الإسلامي اليوم من اختلالات خطيرة اقتصاديا وسياسيا، ويواجه تحديات كبرى علميا واجتماعيا، وعلى الرغم من هاته التحديات والاختلالات، فإنه لا يعدم وجود نخبة أكثر ثقافة وأغزر علما تساهم في تقدم البحث العلمي وتطور المناهج في كل المجالات داخليا وخارجيا، وتسعى من خلالها دائما لمعالجة القضايا الكبرى الراهنة والاستجابة لحاجة المجتمع المتجددة والتصدي لكل النوازل التي تلم بالأمة في ظل واقع ثقافي متغير بشكل سريع جدا، فرض تجديد المناهج استجابة لحاجات المجتمع علميا ومعرفيا. وتعتبر مناهج تفسير القرآن الكريم من أكبر القضايا المعنية بهذا التشخيص، لعدّة اعتبارات أهمها مركزية القرآن الكريم ومكانته، في ظل مشكلات كثيرة حقيقية تطرح اليوم من أخطرها ظهور فئة تنسب نفسها لهذا المجال، لا يقتصدون جهدا في المجاهرة بمعتقدات مصادمة لأصول تفسير القرآن الكريم، ولا يتوانون في بث الشك في نفوس المخاطبين بالقرآن الكريم، وقد ساعدهم في ذلك ومكنهم منه تبدل الزمان وتغير الحال، بين عولمة أرخت ظلالها على ربوع المعمور وهبوب رياح الحداثة، فكثرت بهذه التحولات المطاعن في القرآن الكريم، وأوشكت الشبهات أن تأخذ سبيلها إلى نفوس العوام.

ولعل من بين القضايا الفرعية المتصلة بمناهج التفسير ما أصبح يعرف اليوم بالقراءات المعاصرة للقرآن الكريم، كمصطلح حادث يمكننا اعتباره بديلا عن مصطلحات التفسير والتأويل والتدبر، تثار حوله العديد من الإشكالات المعرفية والمنهجية، تفرض علينا وضعه تحت ميزان النقد والتقويم، والبحث بمنهج وصفي تحليلي في أسباب ومظاهر انحراف هذه القراءات وآثارها على المجتمع الإسلامي والمقاربات الناجعة في معالجة هذه المشكلات، محاولين في مبحثين اثنين تعرف أهم مقومات القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، ومظاهر انحرافها، وسبل معالجتها بالتركيز على علاقة القراءة المقاصدية للقرآن الكريم بنظرية التلقي، كنظرية حديثة سائدة، ومقاربة يمكننا الاستفادة منها في تطوير مناهج تفسير القرآن الكريم.

المبحث الأول: القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، المفهوم والمقومات

1. مفهوم القراءات المعاصرة للقرآن الكريم

تنطلق محاولتنا في تعريف مفهوم القراءات المعاصرة للقرآن الكريم من السؤال عن طبيعة كل قراءة نريدها؟ هل استحضرنا فيها جميع مقومات القراءة العلمية التي توصنا فعلا إلى ما يريده صاحب النص وما يعبر عنه النص وما نفهمه من خلال قراءتنا لهذا النص مع مراعاة للواقع الثقافي لمنتج النص أو ظروف التلقي؟ ولما نتحدث بالطبع عن قراءة النص وما يثار حوله من إشكالات عديدة فإنه من الضروري الحديث عن قراءتنا وفهمنا للنص القرآني باعتباره رسالة الله الخالدة إلى البشرية كافة، هدفها الأساس هداية البشر لما يحقق صلاحهم في الحال والمآل، وهي رسالة ذات مضمون يسعى الإنسان دائما إلى الوقوف عليه باعتباره مراد الله تعالى الذي يجب التزامه في كل مجالات الحياة تحقيقا لمبدأ العبودية وقياما بواجب الاستخلاف.

وإذا كان المفسرون قد حاولوا تحديد مراد الله تعالى من خلال قراءتهم للخطاب القرآني وفق ما كان متاحا لديهم من علوم ومعارف وتجارب وخبرات مخلصين في ذلك النية والقصد، فقد ظهرت اليوم بعض القراءات المعاصرة لكتاب الله تعالى كبدائل لما كان عليه علماؤنا من تفسير وتأويل كلام الله تعالى وتدبر معانيه، والمقصود بها كما عرفها الدكتور محمد كالو: "القراءات المعاصرة للقرآن الكريم هي استخدام النظريات الحديثة في تأويل القرآن الكريم"[1] ، وهي مصطلح جديد، يمكن اعتباره سلاحاً ذو حدين؛ فقد يراد به الإساءة إلى القرآن الكريم والدين باسم التقدم والحداثة، من باب قلب الحقائق وتشويهها وتحريف المفاهيم، وقد يراد به بعث الهمم واستنهاض العزائم، للخروج من الواقع المرير الذي تعيشه أمة الإسلام اليوم؛ لذلك وجب ضبط المفاهيم واعتماد مبادئ أساسية واختيار مقاربات منهجية مناسبة تبدأ بتحديد مواصفات دقيقة لتكون هذه القراءة علمية وتثمر الأهداف المرجوة منها.

إنّ استحضار جميع مكونات القراءة، يجعلها عملية غاية في التعقيد وهو ما يفسر اختلاف القراءات بين قارئ وآخر، وبناء عليه فإن قراءتنا لنص من النصوص يمر بأربعة عناصر أساسية، توجب استحضار كل الأبعاد المميزة للنص من خلال ما يلي:

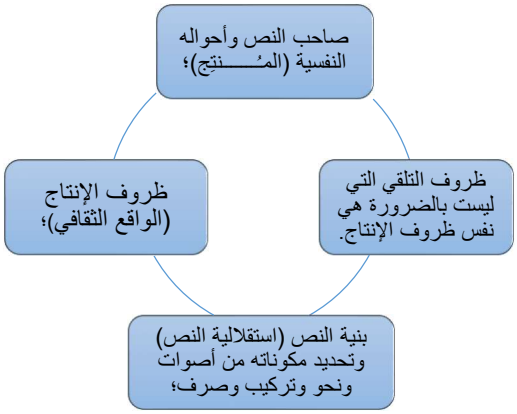

ولا تحقق القراءة أهدافها إلا إذا تميزت بالقصد المؤطر بأهداف واضحة والقدرة على تبرير كل ما توصلنا إليه في قراءتنا لنص من النصوص ابتداء من المكونات التي ذكرناها، والتي تحدد دلالات الصيغ المختلفة ودلالات السياق، واعتماد مقاربات ومناهج مناسبة تدرس النص من الداخل عن طريق الإحصاء والوصف والتحليل، وهو ما يؤدي إلى تعدد القراءات ويجعلها ذات أبعاد ومستويات مختلفة، نتحدث عنها فيما يلي.

2. مستويات قراءة القرآن الكريم وأبعادها:

تعتبر المناهج إطارا علميا يساعد على كشف أسرار النصوص وفهم مكوناتها وأبعادها الدلالية، وطريقةً في البحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أو شبه مضمونة في أقصر وقت ممكن وبأقل جهد، كما أنها وسيلة تحصن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري العقيم. وإذا كانت القراءة عملية معقدة جدا لما سبق ذكره، فقد أضحى التعامل مع هذه المادة أشدّ تعقيدا نظرا لتداخل الأنساق الفكرية والثقافية والمعرفية، وهو ما طرح عدة إشكالات حول طبيعة المنهج الملائم لفهم النّص ونقده؟ وتجلى من خلاله نوع من الصراع الممتدّ بين اتجاهين اثنين: اتجاه سياقي يرى أن النّص الأدبي علّة لمعلول سابق ينبغي الكشف عن دلالاته بربطه بسياقه الخارجي، ويدخل في هذا المجال المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي والأسطوري، واتجاه داخلي يرى أن دراسة النّص تنطلق من العلاقات الداخلية التي تحكمه كالشكلانية والبنيوية والتفكيكية بتناول مكوناته الداخلية من أصوات وحركات وكلمات بالإحصاء والوصف والتحليل يمكن أن تصبح جميعها غاية في الأهمية إذا ما أحسنا استثمارها في قراءة النص القرآني لارتباطها بمجموعة من المعارف والعلوم، وهو ما يجعلنا أمام ضرورة التوفيق والجمع بين هذه المناهج كمقاربات لفهم الخطاب القرآني، بناء على مبادئ أساسية أهمها التكامل المعرفي بين العلوم وتحقيق مبدأ الملاءمة مع الحفاظ على الهوية والطابع الثقافي الإسلامي.

وفي ضوء ما قيل وربطا بموضوع القراءات المعاصرة للقرآن الكريم وما تطرحه من إشكالات حقيقية تفرض تحديد أسباب انحرافها ووضعها تحت ميزان النقد والتوفيق بين هذه المناهج التي نقارب بها كل قراءة والتحقق من مدى ملاءمتها لطبيعة النص القرآني، وباعتبارها مفهوما مركزيا تفرعت عنه مفاهيم جزئية تعددت معها القراءات وذلك راجع إلى عاملين أساسيين يتمثلان في تعقد ظروف التلقي وعدم وحدة المصطلح الدال على المفهوم واستقراره، وهو ما يضعنا فعلا أمام تعدد للقراء بين قارئ بالقوة وقارئ بشكل ضمني وقارئ عادي مستهلك أو ما يصطلح عليه بالمتلقي الأول، والقارئ المتأمل أو ما يصطلح عليه بالقارئ الناقد، والقارئ المبدع أو ما يصطلح عليه بالقارئ الخبير الذي يتفاعل مع العمل الأدبي بحكمة وكفاءة؛ وتعدد للقراءات من قراءة إسقاطية غير علمية لأنها غير ملائمة لمقاربة الخطاب القرآني الذي يحمل مضمونا يوجب على القارئ التوصل إلى مراد الله تعالى، وقراءة مقاصدية عن طريق استنباط الأحكام من القرآن لتكون للمتلقي أساسا يبني عليها عقيدته وشريعته ومنظومته الأخلاقية، وقراءة إبداعية وتفاعلية وسياقية وتأويلية وكل الأنواع الأخرى المتعددة بسبب اختلاف المصطلحات الدالة على المفاهيم المحددة لها ولمرجعياتها وآلياتها ومستوياتها.

وبالنظر إلى العلماء المفسرين على امتداد تاريخ الأمة الإسلامية نجد أن كل هذه الأمور كانت حاضرة في تفاسيرهم من مراعاة للمقام وذلك باستحضارهم للعوامل الخارجية والواقع الفكري والاجتماعي وللسياق باستحضارهم للعوامل الداخلية من قدسية النص القرآني وبنيته الداخلية ولغته المعجزة وتماسكه الداخلي وما سبقه من أسباب النزول وما بعده من مآلات النص ووجوب الوقوف على مراد الله تعالى بالفهم والتدبر وهو ما يفسر تعدد هذه التفاسير وغناها وتكاملها وتأثرها بالواقع الزماني والمكاني الذي أنتجت فيه ويبرر اختلاف مستوياتها، والتي بتغييبها يغيب فهم القرآن وتنحرف المعرفة الإسلامية عن أصلها ونسقط في التكرار أو في اجترار الموروث العلمي دون تطويره وتجديده بشكل يواكب تطورات العصر الحالي، مع امتلاك القدرة على التمييز بين مستوياتها والتي نستطيع تحديدها بشكل مركز كما يلي:

- ❖ المستوى الأول: ظاهر النص

وهو مستوى يركز أصحابه على العوامل اللغوية الشكلية من نحو وصرف وتركيب تعطي معنى مستفادا من ظاهر النص، إنما الإشكال الذي يرتبط بهذا المستوى هو أن ظاهر النص لا يفيد دائما مراد الله تعالى، فلكل نص مكوناته وإذا لم يسعفنا في الوقوف على المعنى يجب الانتقال إلى المستوى الثاني وواقع السياق؛

- ❖ المستوى الثاني: دلالة السياق

قد تكون العوامل الداخلية مؤثرة جدا في تحديد المعنى في الآية القرآنية وقد تفقد معناها إذا اجتزئت من سياقها، وهذا هو منهج كثير من القراء المعاصرين للقرآن الكريم. فإذا لم يسعفنا المعنى الظاهر من النص وجب الوقوف على بنيته الداخلية بتحديد العوامل الشكلية اللغوية من نحو وصرف وتراكيب وأصوات، ودلالة السياق من خلال الوقوف على الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وتفسير القرآن بالقرآن وعلم المناسبة والمقام وهو ما يعرف في التفسير بأسباب النزول المباشرة، حيث لا يمكن أن نتصور أنها نزلت في فراغ، بل في سياق ثقافي، سمّاه سيد قطب بملابسات النزول وتكرر استعماله لها في كتابه الظلال كقوله في تفسير سورة الأنفال وبيانه قيمة غزوة بدر الكبرى: "وسنعرف شيئا من قيمة هذا اليوم، حين نستعرض الوقعة وملابساتها ونتائجها"[2] ويقصد بذلك الواقع الثقافي المواكب لنزول السورة أو الآية؛ وهو ما يمكننا من تحديد المعنى في إطار السياق الداخلي للنص، والوقوف على مراد الله تعالى.

- المستوى الثالث: التأويل

إذا لم يفد المستويين السابقين في تحديد المعنى بطريقة مباشرة ساعتها نهرع إلى تأويل معنى النص ولكي يكون تأويلنا مستساغا ومقبولا علميا يجب أن نبرهن أولا أن المعنى مخفي وأنه خلف النص وأن العلاقة بين النص والمعنى غير مباشرة، فنمر حينها إلى البحث عن مسوِّغات علمية (الضوابط التي تعطي للبحث مشروعيته) وقرائن مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، ونمتلك دليلا على أن اللغة لا تفيد لا بمكوناتها الشكلية ولا بالسياق ولا بالمقام وسنبحث عن معنى المعنى أو ما خلف النص أو ما وراءه، لكن الأمر لا يخلُ من طرح إشكالات متعددة أهمها التساؤل هل كل معنى ثاويا خلف النص نكتشفه يكون مقبولا؟ حينها يجب الاحتكام إلى القاعدة لأن المعنى يكون من قبيل المتشابه والمتشابه كما تقول القاعدة يجب أن يقرأ في إطار المحكم، والنسبي في إطار المطلق وغيرها من الثوابت التي تمكننا من الحكم على هذا التأويل الذي انتهينا إليه، فإذا تعارض هذا المراد الذي انتهينا إليه مع هذه الثوابت اعتبر تأويلا غير سائغ وغير مقبول وهوما أطلق عليه العلماء بالتأويل المردود كما ورد عند الإمام الزركشي[3] الذي لخص هذه الأقوال في البرهان، فحمل النهي فيها على تأويل الخطاب القرآني بمجرد الرأي والهوى، إذ قال: "ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل لقوله تعالى:﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[4]. وهنا يجب التمييز بين نوعين من القراءة، فقد تكون عملية علمية نزيهة لم تحتكم لهذه المسوغات التي ذكرناها، وقد يكون العكس وذلك بأن يكون القارئ أو المفسر لا يريد أن يصل إلى المعنى الموجود في النص ولا يريد أن يعكس المعنى الذي يريده صاحب النص وإنما يريد أن يثبت عقيدته أو هواه أو يحقق مصالحه أو ينتصر لمواقفه فتكون حينها العملية غير علمية من

أصلها وهو ما يعرف بالمنهج الإسقاطي وهو تعبير اصطلاحي بديل عصري لتعبير اصطلاحي معروف ومتداول لدى المفسرين، ولدى الباحثين في الدراسات القرآنية، ألا وهو : "لي عنق النص"، بمعنى أن مفسر الخطاب القرآني تكون لديه أفكار وعقائد ومواقف مسبقة، ويأتي إلى القرآن الكريم ليقرأ تلكم الأفكار والمعتقدات، ويلتمس الشرعية لمواقفه، ومن ثم فهو لا يقرأ القرآن الكريم بقدر ما يقرأ محكماته العقدية والفكرية والسلوكية. فالقارئ هنا لا يكون هدفه استنباط مراد الله تعالى من الخطاب القرآني، بهدف المعرفة عن الله تعالى، والوقوف على مضمون الرسالة الربانية، بغية تنزيلها على الواقع لتعبيد الحياة كل الحياة لله رب العالمين، وإنما هدفه من القراءة التماس الحجة الشرعية لما يعتقده وما يتخذه من مواقف في الحياة، فيعامل القرآن الكريم كما يعامل النصوص البشرية الوضعية، لأنه لا يؤمن بقدسيته، وإعجازه وتميزه عن سائر الكتابات البشرية الوضعية، فهو لا يراعي خصوصياته، كما أن عمله يمتاز بالانتقائية المنهجية والمعرفية، ومن ثم تنعدم في أعماله الموضوعية والنزاهة الفكرية والدقة العلمية وهي المدخل الأساس لأي بحث علمي.

وجاء اقتراح هذا المعادل الاصطلاحي لأن كثيرا من الناس اليوم لا يفقهون معنى التعبير الاصطلاحي المتداول، بل لاحظناه يُتخذ حجة في كثير من المواقف من طرف الفرق الضالة، وسبيلا للاستخفاف ومدعاة للسخرية من مستعمليه، وتوزيع التهم بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة مسيرة التطور التي يعرفها العصر على مستوى التصورات والمفاهيم والمناهج. وقد اعتمدنا طريقة السلف، من باب وساطة التراث، في إقامة الحجة على هؤلاء بما يدعون أنه العلم والمعرفة، وبما هو مواكب لمناهج تحليل الخطاب الحديثة واللسانيات، لنبين أن منهج السلف أسلم وأعلم، وأن القوم عبروا بما يناسبهم زمانا ومكانا، على عكس ما يطمح إليه هؤلاء، وقديما تقرر: "لا مشاحة في الاصطلاح". فالعبرة في المضمون والنتائج، وإن كان تحديد المصطلح شيء أساسي لبناء المعرفة، وتحقيق التواصل، خصوصا في التعامل مع القراءات المنحرفة.

و المنهج الإسقاطي (لي عنق النص) في التفسير هو المنهج الذي سلكته الفرق الضالة في التعامل مع القرآن الكريم بنوع من التجزيء والتفكيك والتحريف، والحقيقة أن قراءة القرآن منهج واحد ونسق متكامل، على عكس ما يعتقده البعض أنها مناهج يستقل بعضها عن بعض، ذلك أن هذه الفرق لا تؤمن إلا بمعتقداتها الفاسدة، ومن ثم فإنهم يخالفون النصوص القطعية الدلالة في النهي عن اعتقاد مذاهب وآراء قبل أن ينص عليها القرآن الكريم، تبينها السنة النبوية الشريفة. يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ

أُۚللَّهَۖ إِنَّ اَۚللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌۖ﴾[5]. وهذا الأصل المنهجي يمكننا من فهم القرآن في نسقية وتكامل ويتفرع إلى ثلاثة أبعاد، يظهر من خلالها الطرح المتهافت لهؤلاء القراء كما يلي:

أ. الأخذ بظاهر النص: لا إيمانا به وتسليما بمقتضياته، وإنما لإقامة الحجة على الحق بصحة دعواهم، حتى لا ينكشف القصد، فينكشف عدم عنايتهم بدلالة الخطاب. وهذا القيد لا يفقهه إلا من تمرس بعلوم اللغة وفقه الخطاب، أي الكيفية التي تتم بها عملية استخراج المعنى من الخطاب. ومن ثم فإن اللسانيات ومناهج تحليل الخطاب الحديثة أسعفتنا كثيرا في فهم أبعاد هذا القيد، فلكي نفهم نصا لا يمكننا أن نفهمه بناء على بنائه اللغوي السطحي، دون أن نستحضر عاملين أساسيين من عوامل استخراج المعنى، وهما السياق اللغوي أي السياق الداخلي المتمثل في ما قبل الآية موضوع التفسير وما بعدها باعتبار القرآن الكريم نسقا متكاملا لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الشمولي، ومن ثم نفهم فهما جيدا لماذا اشترط أهل السنة في أصولهم التفسيرية تفسير القرآن بالقرآن، ودلالة السياق، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والعلاقات الدلالية القائمة بين ألفاظ القرآن الكريم: العام والخاص، المطلق والمقيد، علاقة الجزء بالكل، علاقة التضمن وغيرها من العلاقات الدلالية التي في غيابها لا يمكننا فهم الخطاب القرآني. أما الأساس الثاني فهو السياق غير اللغوي أي السياق الخارجي وهو بالنسبة للخطاب القرآني ينقسم إلى قسمين: أسباب النزول، وهي الظروف والملابسات المواكبة لنزول سورة أو آية، أي إنها سبب غير مباشر. ومعلوم أنه ليس كل القرآن الكريم له سبب مباشر، كما أنه لا يمكن أن نتصور أن بعضا من القرآن الكريم ليس له سياق غير لغوي، فالقرآن الكريم كان ينزل في بيئة معينة، ويخاطب أقواما معينين، ومن ثم فإنه حتما ولزاما له سياق غير لغوي يتمثل في الواقع الثقافي المواكب لنزول القرآن الكريم: الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والدينية التي واكبت نزول القرآن الكريم وهي ما يمكن الاصطلاح عليه بملابسات النزول وهي أوسع من أسباب النزول لأنها أسباب غير مباشرة.

إن أي خطاب لا يمكن أن نفهمه ما لم نستحضر سياقه اللغوي، وسياقه غير اللغوي. ومن ثم فليس كل أخذ بظاهر النص يعتبر مفضيا إلى مراد الله تعالى، إذ إن عملية إنتاج المعنى وعملية استنباطه عملية معقدة، ولا يشكل البناء اللغوي السطحي إلا مدخلا لهذه العملية، ومن ثم وجب الاحتراز من ذلك باعتباره مدخلا لكثير من الفرق الضالة قديما وحديثا لتمرير أطروحاتهم. إذ الأخذ بالظاهر له شروط منها:

- العام ينظر إليه في إطار الخاص؛
- المطلق ينظر إليه في إطار المقيد؛

- المتشابه ينظر إليه في إطار المحكم؛
- المنسوخ ينظر إليه في إطار الناسخ؛
- دلالة السياق اللغوي: أي ما قبل النص وما بعده؛
- العرف اللغوي، مراعاة سنن العرب في الكلام؛
- العرف القرآني: طرائق القرآن التعبيرية، وأسلوبه في البيان والبلاغ.

ب. القول بالتأويل: إذا عجزوا عن جعل ظاهر النص موافقا لمعتقداتهم ومزكيا لمواقفهم فإنهم يقولون بأن الظاهر غير مراد، ومن ثم يبادرون إلى الأخذ بالمعنى الباطن بصرف النص عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح من غير تقيد بالضوابط المتعارف عليها وعلى رأسها وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الظاهر المتبادر.

ت. القول بالتفويض: إذا عجزوا عن تأويل الآية بما يوافق معتقداتهم، ويزكي مواقفهم فإنه يقولون بالتفويض، أي إن الله تعالى استأثر بعلمها، وذلك حتى يقطعوا الطريق على مناظرهم من إقامة الحجة عليهم. ولذلك نجد أهل السنة والجماعة يقررون مبدأ: ليس في القرآن الكريم شيء لا يستطيع صاحب اللسان معرفته، كما فرقوا بين فهم الآية وإدراكها، فالفهم هو القدرة على التمييز، فإذا تعلق الأمر مثلا بصفات الله تعالى فإن صاحب اللسان العربي يميز بين صفة العلم وصفة الاستواء وهي ليست واحدة بالنسبة إليه، ومن ثم فهو يفهمها، لكنه لا يستطيع إدراكها، أي لا يستطيع معرفتها على ما هي عليه في الواقع، فذلك هو ما استأثر الله تعالى بعلمه، وبذلك يرد كيد الكائدين بالعلم والمعرفة مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[6]

❖ المستوى الرابع: الإشارة (التفسير الإشاري):

في هذا المستوى تكاد تكون العلاقة شبه منعدمة مع اللغة لأنها تكون عبارة عن إشارة تسير إلى معنى معين، وتكون من باب الكناية، واستعمال الرمز. وفي حديثنا عن الكناية نضرب مثالا في قول الله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[7] وهنا نتساءل حول المعنى الجديد؟ فالناس جميعا يأكلون الطعام، ولكن نفهم هنا أن الحق سبحانه وتعالى استعمل أسلوبا راقيا عن طريق الرمز والإيحاء أو بمعنى آخر للدلالة على أن ليس من يأكل الطعام إلاها نظرا للعلاقة بين الأكل والمرحاض، إنما بشر لا تنطبق عليه صفات الألوهية، وهنا تتبين المعاني المستفادة عن طريق دلالة الرمز والتي سماها الصوفية بالإلهامات القلبية.

وهذه المستويات الأربع من التفسير التي ذكرت نكاد نجدها عند كل المفسرين، وتعتبر مقدمة أساسية لفهم القراءات المعاصرة ووضعها في ميزان النقد والتقويم والرد على كل الفرق الضالة من القراء المعاصرين في تعاملهم مع

الوحي كتابا وسنة. وقد بين ابن تيمية في رسالته مقدمة في أصول التفسير أصلا هاما يعتمد عليه في نقد تفاسير القرآن الكريم في كل زمان ومكان. وذلك أن هذا الأصل يعتبر من الثوابت التي لا تتغير والتي تعتبر معلما من معالم المنهج السني، سواء أكان الأمر يتعلق بعلم التوحيد أم بالتفسير أم بالفقه، حيث قال: "والعلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما زيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود"[8]. وهو ما ينص على أن نقد النصوص يتوقف على أمرين لا ثالث لهما. فالعلم إما أن يؤخذ من مشكاة النبوة وهو الحق الأبلج والحجة البالغة، وإما رأي واجتهاد يقوم عليه دليل من العقل أو النقل. وبناء عليه يظهر أن الاختلاف في التفسير على نوعين، وهو ما استند إليه غالب المفسرين:

- النقــل: وهو إما أن يكون عن معصوم أو عن غير معصوم، وهذا بذاته يتفرع إلى قسمين:
  - الأول: ما يتوصل إلى معرفة صحته فيؤخذ به مطلقا ولا يجوز تجاوزه إلى غيره.
  - الثاني: ما لا يتوصل إلى معرفة صحته من ضعيفه وهذا يتوقف عنده ولا يجزم فيه برأي، ومن ذلك ما ينقل عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق، وغيرهم ممن يأخذون عن أهل الكتاب، ومثاله الاختلاف الحاصل في أحوال أهل الكهف، وفي البعض الذي ضرب به قتيل بني إسرائيل من البقرة، وغير ذلك مما يختلف فيه القراء اختلافا كبيرا، وهو مما لا فائدة فيه على الإطلاق، فالحق سبحانه ما ترك من أمر يفيد الناس في دينهم أو دنياهم إلا أقام عليه الدليل نقلا أو عقلا.
- العقل أو الاستدلال: هو ما كان مصدره العقل أو الرأي أو ما سمي بالاستدلال، فإن الخطأ فيه يكون من ناحيتين:
  - الأولى: أن يأتي المفسر إلى القرآن طالبا دليلا ينتصر به لرأيه أو مذهبه بحيث يجعل القرآن تابعا ولا متبوعا، ومأمورا لا أميرا، وهؤلاء قد ركزوا على المعنى الذي ذهبوا إليه دون النظر إلى دلالة وبيان ألفاظ القرآن مما يجعلهم يحملون اللفظ القرآني على غير محمله. والمتتبع لتفسيرات هؤلاء المفسرين يجدهم يتعاملون مع النص القرآني بمنهجين متباينين، ولكنهما متكاملان من حيث الغاية والهدف، ذلك أنهم يحاولون أن يستدلوا على صحة مذهبهم وينتصروا له بآيات ليست دالة على ما ذهبوا إليه، وهم يحملونها على ظاهرها دون مراعاة للسياق الذي وردت فيه. وأما إذا وجدوا في القرآن ما يعارض مذهبهم فإنهم يسارعون إلى تأويله بتأويلات منحرفة وضالة وبعيدة عما دلت عليه في سياقها، مدعين أن ذلك من المتشابه، وممن سلك هذا المسلك الفرق الضالة التي اعتقدت مذهبا يخالف الحق الذي عليه أئمة الأمة، ومنهم الخوارج

والروافض والجهمية والقدرية والمرجئة والمعتزلة وغيرهم. وهؤلاء قد يخطئون أكثر من مرة في الدليل الواحد، وقد يخطئون في الدليل والمدلول وذلك حسب المنهج الذي اتبعوه في تأويلهم لآي الذكر الحكيم.

- الثانية: أن يعمل المفسرون على تفسير القرآن بمجرد ما يدل عليه اللفظ العربي، وما يريد به الناطق بالعربية دون مراعاة خصوصية القرآن الكريم. وهؤلاء يركزون أكثر ما يركزون على اللفظ وحده دون اعتبار للسياق القرآني، فيكون غلطهم في المعنى الذي حملوا عليه آي الذكر الحكيم فاحشا.

نستطيع أن نستنتج أن الأبعاد السابقة التي ترسم خطوات المفسر، والآليات أو الإجراءات التي يتبعها في التعامل مع القرآن الكريم (الأخذ بظاهر النص – التأويل – التفويض) لا تمثل بالضرورة المنهج الحق، مادام تصور هؤلاء القراء المنحرفين يتمثل في عدم إيمانهم بالقرآن والسنة، والمنهج عندهم هو إنكار الوحي ورفع القدسية عنه، وهنا تكمن خطورتهم في تصريف المعتقد عن طريق هذه الإجراءات. فالمنهج أخطر من أن يتم حصره في هذه الإجراءات فقط أو كونه تحليل الطريقة المتبعة لفهم النص القرآني أو التوصل للحقيقة، بل فيما يحققه من قصد في تصريف معتقد فاسد يتمثل في عدم الإيمان بحقيقة الوحي كما سبق ذكره ورفع القدسية عنه واعتباره فعلا بشريا، والمنهج يعكس كما هو مقرر بنية التفكير وهذا ما يجعلنا أمام ضرورة التركيز على المناهج لأنها تبين نمط التفكير وتظهر شخصية المفكر، خصوصا أمام بيئة إسلامية أصبح الإسلام فيها غريبا وأصبح المسلمون يعيشون حالة من التوتر النفسي الشديد بين أوامر وأحكام الشرع وما تحكم به أحوال الواقع وما يعترضهم من نوازل غير معهودة في تاريخهم الفقهي فيظهر حاجتهم الماسة إلى التشريع في بيئة تداخلت فيها الأنساق ولم تعد إسلامية صرفة (اختلال النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي...) وأبعدهم عن فلسفة الإسلام التي تضيق دائرة الحرام وتوسع دائرة الحلال لإتاحة البديل وتعدد الخيارات رحمة ورفعا للمشقة، فالشريعة كلها رحمة وكلها عدل وأدخلهم في واقع انعدمت فيه المؤسسات الراعية وانعدمت أدوارها الرائدة ونخص بالذكر المؤسسات القائمة على الشأن الديني التي تركت فراغا طفت معه هذه الانحرافات وتعالت بعض الأصوات الداعية إلى هذه القراءات المعاصرة التي نحت نحو الفرق الضالة وغاب دور العلماء الذين لهم من الإخلاص والعلم والمعرفة ما يمكنهم من معالجة القضايا المجتمعية بما يستجيب لحاجيات المجتمع المتزايدة بكل موارده وعوامله ومتغيراته، فسقطنا في فخ الرد على هؤلاء المنحرفين والدفاع عن قضايا وشبهات يثيرونها بغية تحقيق أهدافهم وغيّبنا المنهج رغم أهميته البالغة وهو خطأ جسيم نرتكبه لأننا نناقش أشخاصا خارج المنظومة الإسلامية والأولى تأسيس كل جدال وحوار ومناظرة على أسس أهمها تحديد المعتقد والحسم فيه حتى لا يتصرف معتقد فاسد باسم الدين وباسم مسميات وقناعات لا صلة لها بثقافة المسلمين.

وبعد الحديث عن هذه المستويات، وفي محاولة تقويمنا لهذه القراءات وتسليطنا الضوء على المنحرفين من القراء المعاصرين للقرآن الكريم ومن الفرق الضالة نخلص إلى أن كل شخص يقرأ ولا يريد أن يتوصل إلى مراد الله تعالى ويريد أن يحقق أهداف شخصية خبيثة لا بد أن نحكم على قراءته بأنها غير علمية وهو ما نغفل عنه حين الرد على خصوم الدين الذين يجرونا للأسف إلى منطق دفاعي تبريري بإثارتهم للشبهات حول قضايا كلية كنظام الإرث وحقوق المرأة، فنسقط في فخ الرد والدفاع بدل إثبات عدم علمية قراءتهم للقرآن الكريم. ومن الطرق الناجعة في الرد على هؤلاء البدء بقضايا العقيدة وتماسك أحكام الشريعة ووضع شروط صارمة، وذلك بتحديد المواقف الحقيقية من الشرع وعلى ضوئه يتم بناء أرضية الحوار والنقاش والحجاج والمناظرة وصياغة معايير الاحتكام والحكم بدل أن نخضع باسم مفاهيم مغلوطة وأن نتنازل عن أمور الدين باسم التسامح وغيرها من المفاهيم الرائجة اليوم التي تكرس منطق الخضوع والهيمنة والتبعية والسيطرة والاستضعاف، فمنطق التسامح يجب قراءته في إطار ثقافة وإيديولوجية تحكمها المصلحة المتبادلة وهدفها التعايش والسلم.

إن الحديث عن ماهية القراءة كتقنية، يبدأ من اعتبارها عنصرا يقابل الكتابة التي يسبقها ما هو شفوي لأن النطق والكلام هو الأصل في الإنسان وهو ما يحقق به تواصله الدائم مع الآخر ويعبر به عن مكنوناته وينقل تجاربه وخبراته عن طريق اللغة التي يعتبرها اللسانيون علما غاية في التعقيد يتعلمها الإنسان ويستطيع أن يتقنها إذا أخضع ذلك لعوامل متعددة أهمها خلق بيئة منسجمة في الزمان والمكان ووحدة اللغة المتلقاة خصوصا اللغة الأم باعتبارها لغة سليقية تعتمد على الاستعدادات الفطرية للإنسان حسب ما أورده تشومسكي في نظريته، وتنشأ في بيئة منسجمة من حيث العناصر السابق ذكرها ويضبطها عن طريق قواعد صرفية وبلاغية ونحوية وغيرها[9]. فكل لغة لها قواعد محدودة كمادة خام من قواعد تضبطها ومعجم، يستطيع الإنسان بناء على إبداعه إنتاج عدد غير محدود من الجمل في وضعيات مختلفة متجددة ويستطيع استعمال الكلمة الواحدة في سياقات متعددة في معاني مختلفة وهذا الأمر يعتبر من أهم خصائص اللغة العربية باعتبارها لغة غنية جدا، والكلمة تكتسب دلالاتها من السياق اللغوي الذي وردت فيه وهو ما تفطن إليه علماء التفسير خلال تفسيرهم وتدبرهم لآي القرآن الكريم، لأن الآيات أو المفردات القرآنية لا يمكن تحديد معناها إلا في سياقها الكلي وهنا لا بد من الإشارة إلى الانحراف الذي وقع فيه كثير من أصحاب القراءات المعاصرة اليوم وذلك بتجريدهم الكلمات من معانيها داخل السياق [سياق لغوي قريب يرتبط بمعنى الكلمة داخل سياق الآية – سياق متوسط يرتبط بالسورة ومغازيها – سياق بعيد يرتبط بالقرآن كله] أو ما نطلق عليه الاجتزاء من السياق، فتفقد بذلك معناها. ففي حديثنا عن تفسير القرآن الكريم وتحديد معاني الكلمات

داخل السياق الداخلي لكلام الله تعالى باعتباره خطاب رباني ورسالة موجهة للعالمين هدفها تأصيل فكر إنساني معين مكون من عناصر داخلية عبارة عن سور وآيات وكلمات وحروف تحدد الأصوات والأشكال، فإن القراءة المناسبة هي القراءة النسقية أو ما يعرف بتفسير القرآن بالقرآن باعتباره بناء كليا متكاملا، وهو ما يظهر الخلل في هذه القراءات المعاصرة ويؤكد حاجة المفسر إلى الإلمام بشتى العلوم من حديث وقراءات وسيرة وفقه وتاريخ ولغة من تعلم قواعد اللغة والعرف العربي اللغوي وسنن العرب في الكلام ونظريات حديثة في كل المجالات من لسانيات وأنثروبولوجيا وعلوم الاجتماع ورياضيات...، والتعرف على خصوصيات كل مجال من هذه المجالات بناء على مبادئ أساسية أهمها مبدأ المشاركة العلمية والانفتاح على المجالات العلمية المذكورة لتحقيق التكامل المطلوب أثناء تلقي القرآن الكريم، ومبدأ الملاءمة أو بمعنى آخر مقاربة كل مجال بالمنهج الذي يناسبه، والاحتكام لمبدأ الصرامة العلمية بمعنى تطبيق القواعد العلمية من الأول إلى الآخر دون محاباة أو استثناء وغيرها من المبادئ الأساسية غايتها إثبات الهوية الإسلامية الجماعية والحفاظ على وحدتها، الشيء الذي يضمن إبداع المفسر ويظهر عبقريته، وهو ما يفتقد إليه الكثير من القراء اليوم الذين يسعى أغلبهم إلى قراءة القرآن الكريم بأهداف إيديولوجية معروفة أساسها فصل الدين عن الحياة، فيجعلنا أمام تحديات كبرى للخروج من هذا الوضع والتصدي لإشكاليات كبرى أهمها عدم مراعاة طبيعة المضمون والمقصد والشكل في تلقي العلم وهو ما نتج عنه تحويل الدين إلى أعراف وطقوس وعادات نتلقاها عن طريق المحاكاة باعتبارها أدنى مراتب التعلم، وإعادة تحكيم شرع الله تعالى وتطبيق أحكامه انطلاقا من الوحي وفهمه أثناء التلقي أمام تعدد معاني وألفاظ كلام الله تعالى التي تسع الزمان والمكان ومعالجة وباء الاستهلاك الذي سقطت فيه أمة الإسلام وافتقادها لملكة الإنتاج نتيجة تغير بنية التفكير الذي جاء القرآن مؤصلا لنمط خاص من الفكر الإنساني أساسه الوحي، وناصرا للحق وموحدا للهدف من استخلاف الإنسان في الأرض وحسن عمارتها ومطالبته بالوصول إليه بكل الطرق المتاحة التي تمكنه من ذلك وهو ما يفرض تبني مقاربات ومناهج ملائمة تحقق هذه الغاية لعل من بينها القراءة المقاصدية لكتاب الله تعالى التي تهدف إلى معرفة مراد الله تعالى من سنّ الأحكام ووضع الشرائع.

3. القراءة المقاصدية للقرآن الكريم:

إن حديثنا السابق عن كل ما يتعلق بقراءة القرآن الكريم واختلاف مستوياتها وأبعادها وعناصرها المحددة ومرجعياتها وأهدافها، وانطلاقا مما آلت إليه بعض القراءات المعاصرة للقرآن الكريم والظروف الراهنة التي تعيشها الأمة الإسلامية بكل مكوناتها وعواملها ومتغيراتها وحاجاتها المتجددة تضعنا أمام ضرورة اعتماد مناهج ومقاربات مبنية

على الأسس والقواعد التي سبق وفصلنا فيها الحديث، ولعل ما يحقق هذه الغاية، القراءة المقاصدية لكتاب الله تعالى باعتباره رسالة الله إلى العباد يرتبط بمقصد معين هو تحقيق الهداية للعالمين ومصلحتهم في العاجل والآجل. فالقراءة المقاصدية تعتمد منهجا استنباطيا يستمد به المسلم عقيدته وشريعته وأخلاقه من القرآن الكريم ويستمد منه مرجعياته ثم يعمل بمقتضاه عن طريق إحالة تعاليم السماء إلى واقع عملي عن طريق التأويل أو بمعنى آخر التطبيق العملي لمراد الله عز وجل وتنزيل النص على الواقع وهو ما لا يتحقق دائما من ظاهر النص بل يوجب صرف المعنى العام الظاهر للمعنى الباطن بقرائن معتبرة، لتحقيق الإخبارات الغيبية على أرض الواقع عيانا، وقياس النتائج بمعايير وخطط علمية، والمقصود تحقيق المصلحة في الدارين بتطبيق مراد الله في الدنيا وعمله لما بعد الموت من بعث وجزاء وهوما كان ديدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفهم من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها: « يتأول القرآن»[10] من حيث تأويله القرآن وتنزيله على أرض الواقع وقولها: «كان خلقه القرآن»[11] من حيث وجوب الاقتداء به.

و من ثم فإنه لا يمكن أن يحتمل من قراءتنا لكتاب الله تعالى إلا ما حققنا به المقصد الحقيقي من كلامه، والذي حدده علماء التفسير في تعريفهم للتفسير كما أورد الزرقاني في المناهل: "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية"[12]، ويستفاد من ذلك أنه يجب على القارئ أن يبذل طاقته ويفرغ جهده ويجتهد في أن تكون قراءته مقاصدية لأن الغاية أكبر من أن نقرأ القرآن لمجرد القراءة أو نجعله مفتوحا أمام أي قراءة وإن على وجه التأويل لأن ذلك سينحرف بنا حتما عن هذا المقصد ويبعدنا عن مضمون الخطاب السماوي وعن مراد الله تعالى من وضعه للشرائع والأحكام في التوحيد والتزكية والعمران وتحقيق الغاية من الاستخلاف في الأرض.

و من خلال ما قيل نستطيع أن نستنتج أن القراءة المشروعة للقرآن هي هذه القراءة المقاصدية كما وصفناها لأنها تهدف كما سبق الإشارة إليه إلى معرفة مراد الله تعالى، وإحالته إلى واقع عملي، وهذه القراءة لها مستويات متعددة، جسدها التراث التفسيري المنضبط بآداب وضوابط وشروط المفسر والتفسير على حد سواء باعتبار أن المفسر رغم تحقق الشروط فيه من شروط معرفية بين الشروط العلمية المحضة والشروط المنهجية وأخرى ذاتية نفسية وأخلاقية، فقد لا يتوفق في تفسيره وفي قراءته للقرآن الكريم، وقد يحصل أن تتفلت القراءة من هذه الشروط الذاتية والمعرفية وتصبح مجافية للصواب، كما يمكن أن تصبح كذلك إذا تعلق الأمر بأشخاص يريدون مقاربة النص القرآني بمناهج لا تراعي خصوصياته ولا تحفظ له فرادته وتميزه عن معهود الكتابات البشرية، ومنه نكون مجبرين برد هذه القراءات وعدم قبولها حتى لا تكون عبارة عن إعادة إنتاج نص جديد فاقدا لمعناه الأصلي أو متضمنا لمعنى جديد

غير ملائم، ويكون حينها القارئ مجرد قارئ لأفكاره ومعتقداته وقيمه ومواقفه في ثنايا النص القرآني. والتوجه الصحيح في هذه الحالة ينطلق من التمييز بين ثلاثة مستويات للنص وهي النص نفسه ومنتج النص والمتلقي، والجميع يعلم أن ظروف إنتاج النص ليست هي نفسها ظروف تلقيه وهما معا لا يمثلان بالضرورة مضمون النص، وهذا مما يسلم به الدارسون حيث نرى أن علماء التفسير كانوا حريصين على تدوين أسباب النزول وملابساته (السياق القرآني) والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية المواكبة لنزول القرآن الكريم، حتى لا ينزلق المفسر ويضل الطريق ويبتعد عن مراد الله تعالى من الخطاب القرآني، فيخلط بين العام والخاص والمطلق والمقيد وغيرها من الانحرافات والمزالق التي يسلكها كثير من القراء. وهو ما يجعل الباحثين والمتخصصين اليوم في الدراسات الإسلامية أمام تحديات كبرى أهمها، ارتباطا بموضوع الدراسة، البحث في كل السبل التي تجعل كل قراءة للقرآن الكريم محققة للمقصد، لا بد فيها من استحضار واقع التلقي، وأن تتحقق فيها أسس التلقي السليم (نظرية التلقي)، وهو ما سنفرد عنه الحديث في المبحث الموالي.

المبحث الثاني: تفسير القرآن الكريم في ضوء نظرية التلقي:

1. نظرية التلقي، المفهوم والأسس النظرية

قبل تعريف نظرية التلقي، لا بد من التأكيد على ضرورة صياغة أنموذج معرفي يمكننا من التعرف على الظاهرة المتلقاة، وتوجه البحث يفرض علينا اختيار القراءات المعاصرة للقرآن الكريم كأنموذج، لأنه إذا لم يكن لدينا إلمام بنظرية التلقي لن نتمكن من فهم هذه الظواهر ومن بينها القراءات المعاصرة لأنها مبنية فعلا على التلقي وظروفه وملاباساته. فنحن إذن معنيون بدراسة هذه النظرية لأننا مطالبون بفهم كل الظواهر المجتمعية وتحليلها. ولعل أهمها القراءات المعاصرة للقرآن الكريم التي اتخذت كلام الله موضوعا لها، وهنا تكمن الخطورة، لنفهم كيفية التعامل مع روادها؟ ونعرف مما تتكون؟ وما هي مرجعياتها الفلسفية والسياسية والاقتصادية؟ وما هي أهدافها المعلنة والخفية؟ ولماذا هذا الاهتمام البالغ بقراءة القرآن الكريم؟ ومن ضمن اهتمامنا كذلك بهذه النظرية، معرفة هل هي على شاكلة واحدة؟ أم منها ما هو سلبي أو ما هو إيجابي؟ هل يساعدنا هذا التصنيف على حسن التعامل معها واتخاذ المواقف المناسبة تجاهها بقبولها أو ردّها؟ وفي تفاصيل الجواب عن هذه الأسئلة ومعالجة هذه الإشكالات نستطيع أن نعتبر أن نظرية التلقي من النظريات الحديثة التي ظهرت في مجال السياسة والدعاية والإعلام ارتبطت ارتباطا وثيقا بأهداف سياسية استعمارية توسعية بهدف السيطرة والهيمنة، قبل أن تنتقل إلى مجال النقد الأدبي، وقد ظهرت بألمانيا قبيل قيام الدولة النازية وطيلة مرحلة أخذها بزمام الحكم بألمانيا، حيث تم الاهتمام بالدعاية للنازية ولفكرها الداعي لنموذج الدولة الكلية بشكل لافت للنظر، فتم التركيز على التفصيلات الدقيقة لإنتاج الأعمال الأدبية ونشرها، بالمزج بين الفن والأنباء لتقديم صورة انتقائية للواقع، تغيب عنه الحقيقة وتحجب عنه الموضوعية، قبل أن تنتشر في مختلف ربوع العالم، لنصبح اليوم أمام نظريات متعددة للتلقي.[13] وفي محاولتنا تعريف هذه النظرية فقد ذكرت الدكتورة إيكر أنه بالرجوع إلى المعاجم اللغوية والاصطلاحية، والموسوعات العلمية العربية والفرنسية والانجليزية لا نجد بها تعريفا علميا لمصطلح التلقي كما هو متداول في النقد الأدبي، في حين إذا رجعنا إلى المعجم الألماني فإننا نجد به تعريفا دقيقا لهذا المصطلح، بل يتجاوزه للحديث عن جمالية التلقي، وتاريخ التلقي، مما يبين أن التلقي اكتسب مفهوما نظريا جديدا في نسق الفكر الألماني المعاصر، قبل أن يأخذ مثل ذلك في أنساق المعرفة الإنسانية، التي أخذت معها صورا مختلفة وأبعادا أخرى تتحد كلها في جوهر واحد، كونها تنزع إلى تزوير الواقع، وطمس الحقائق، مع تبني المنطق التبريري للغزو والقهر، وابتكار المبررات، وصنع الذرائع للهيمنة والاستحواذ على مقدرات الشعوب، مع الترويج

لنموذج ثقافي معين يركز على تحلل القيم وذلك بالتشكيك في الثوابت والتطاول على المقدسات وسلب الهوية وطمس معالم الفرادة الحضارية التي تستهدف الداخل بالإقناع والخارج بالإخضاع.[14]

إن الاهتمام بالتلقي ومراعاة أحواله وظروفه، هو اهتمام بكيفية ترويج نموذج ثقافي معين، والتمكين له، ضد النماذج الثقافية الأخرى أو في ضوء تداخل الأنساق وتعدد البيئات الثقافية، وهو ما يجعل له بعدين أساسيين يتمثلان في التمكين والتصدي داخل تدافع حضاري عالمي وترسيخ لثقافة الهيمنة والسيطرة والنفوذ، وتغييب منطق العقل، ولغة التعايش الإنساني، والإيمان بتكامل الحضارات داخل فضاء عالمي مشترك والإيمان بمبدأ الاختلاف وقبول الآخر والاعتراف به والإقرار بوحدة الجنس البشري. وكما سبق ذكره فإن نظرية التلقي نشأت في بيئة نازية قبيل الحرب العالمية الثانية لأسباب دعائية تحاول تكريس نمط ثقافي معين، ومن ثم كانت ذات طابع عملي تطبيقي أكثر منه نظري، إلا أنها أخذت فيما بعد بعدا أعمق من حيث التنظير ونشأت مطبوعة بعامل نفسي جوهره الشعور بالهزيمة والإحساس بالآثار الوخيمة للحرب والشعور بضرورة نسيان الماضي وجبر الضرر ومحاولة تجاوزه بمعايشة الحاضر والتركيز على المستقبل وذلك بالتركيز على القارئ (المتلقي) دون إعارة كبير اهتمام للنص في حد ذاته الذي يمثل الحاضر الموصول بالماضي في سياق إنتاج معين (سياق تاريخي رافق كل الأحداث والوقائع)، سيختلف حتما عن واقع المتلقي أو القارئ الثقافي ويحاول تشكيل أفق رحب لديه لأمل أفضل وغد أحسن من خلال تلقيه للخطاب، وهو ما يفسر تطور هذه النظرية من خلال ما حققته من ترويج لأنماط ثقافية معينة والتمكين لها وترسيخها في أذهان المتلقين بنقل المعلومات وتقبلها ورواجها وكيفية الإرسال وأساليب التلقي وتقنياتهما.

و إذا ما حاولنا دراسة المرجعية المعرفية لنظرية التلقي، فإننا نفاجئ بثرائها وغناها وشموليتها لنظريات ومناهج متعددة ومتنوعة، يفسره ما سبق ذكره من ظروف النشأة والتطور وما لاقته من اهتمام بالغ للنتائج التي حققتها في فكر المتلقي عن طريق الترويج والدعاية، حيث يمكننا حصر أهم هذه المرجعيات في المنهج الشكلاني والبنيوي وما لهما من أثر بليغ في التأثير والجذب، والسيميوطيقا ونظرية التواصل والتحليل النفسي الأدبي والهيرمينوطيقا وسوسيولوجية القراءة وغيرها من النظريات والمناهج المتعددة التي تخفي خلفها مرجعيات أخرى فلسفية وأيديولوجية ومعرفية، مما يؤكد غنى نظرية التلقي في صيغتها الألمانية، وتطورها فيما بعد بعدم وقوفها عند المظاهر الشكلية، والجوانب الإجرائية، بل تجاوزت ذلك في طموح كبير لتتمثل أسسها الفكرية والعلمية والفلسفية والاستفادة من جوانبها الإجرائية، بغية أن تكون البديل الأكفى، فعملت على بلورت جهاز مفاهيمي غني ومعقد يمكننا حصره في المقومات التالية:

- ✓ القراءة مفهوم مركزي ترتبط به مفاهيم جزئية نحو تعدد القراءات وتاريخ القراءة ومرجعيات القراءة وآليات القراءة؛
- ✓ تعدد القراء تتفرع عنه مفاهيم جزئية كالفعل القرائي وصنف القارئ وسلطته، مهارته وكفاءته؛
- ✓ التواصل وتقنياته ووسائله؛
- ✓ القطب الفني والجمالي؛
- ✓ السياق الثقافي وظروف التلقي؛
- ✓ الغايات والمقاصد.

2. إشكالية التلقي في واقع المجتمع الإسلامي:

يحصل أحيانا الخلط بين المناهج والمذاهب والنظريات. فإذا كانت النظرية هي الكفاءة التفسيرية وهي عمل بشري ظني قابل للتطوير والتصحيح والتقويم وليس قطعيا يقينيا لأن الإنسان إذا أصبح ينظر إلى العلم بشكل قطعي فقد دخل في الإيديولوجيا وخرج عن دائرة العلم، فالعلم مبني على الظن عند المسلمين وعند غيرهم (غير أمور العقيدة). فهدف النظرية إذن هو التفسير والإحاطة بمجال معين، أما المذهبية فلها أهميتها وفلسفتها لما فيها من مراعاة للاختلاف واستحضار ظروف كل بيئة ما لم تخالف الشرع وتخضع للتعصب. والحديث عن المناهج يوقفنا أمام المشكل الحضاري للمنهجية على العموم، وارتباط المناهج بالنظريات، ذلك أن المنهج إنما هو وليد المذهب الذي أفرزه وينتج نظرية معينة وبذلك نستطيع ان نستنتج بصعوبة الإقرار باستقلالية المنهج وقطعية النظريات العلمية المتوصل إليها.[15]

إن تجميع قضايا معينة وإدراك العلاقات بين مكوناتها في إطار نظرية معينة، كنظرية أهل السنة والجماعة على سبيل المثال، بهدف الوصول إلى الحكم الشرعي، يظهر خطورة المنهج المتبع خصوصا أثناء ضبط كيف تتم عملية التفسير وعملية استنباط الأحكام عند الفقهاء وينبه إلى عدم الاكتفاء بالوقوف على النتائج وما وصل إليه المفسر أو الفقيه، خصوصا اليوم مع تداخل الأنساق في البيئة الثقافية الواحدة وتغير ظروف وعوالم المجتمع وما أصبحنا عليه من ترويج لعدة مشاريع مجتمعية عن طريق وسائل مؤثرة جدا كالسينما والقصة والتصوير... والتي تكون صادمة أحيانا لأنها مبنية على أهداف متوسطة وبعيدة المدى، وهنا تظهر خطورة المقاربة النظرية عموما ونظرية التلقي خصوصا لارتباطها بوسائل مؤثرة جدا وتأسيسها على مبدأ الدعاية والسيطرة على النفوس وتطبيع المجتمع مع ظواهر ونماذج غريبة عنه ولذلك تظهر خطورتها لتداعياتها المختلفة وآثارها السلبية ونتائجها الكارثية (التطبيع مع الظواهر

وقبولها في المجتمع) وتداخل الأنساق الفكرية والاجتماعية والسياسية، وتزداد خطورة أمام الفراغ الذي يعرفه مجال البحث العلمي في المجتمع الإسلامي والهوة السحيقة بين الشريعة والحياة، والافتقار إلى عناصر الخيال والإبداع والإنتاج والمردودية، فأصبح الغالب لا يفهم الأحكام الشرعية ومقاصدها فينتج مجتمعا إسلاميا هجينا فقد هويته الإسلامية المبنية على المنظومة القيمية الإسلامية التي لا تقبل التجزيء ولا التفكيك.

إذن من أكبر الإشكاليات التي تحيط بنظرية التلقي ضرورة فهمها في نسقها دون تدخل أو تأثير كما يحدث اليوم في ظل كل هذه التطورات وما أصبحنا اليوم نفتقده من الأصالة والوسائل وسوء تقدير الأمور لمحدودية الرؤية وقصور الفكر وهجانته، فبعد الحرب الباردة أصبحنا أمام نظام عالمي جديد يفرض على الأمة الإسلامية أن تحتاط، وهو ما أفرز بعض الظواهر بمثابة ردود أفعال لما يحدث كظاهرة الإرهاب والجهاد والترويج لها وجلها ذريعة للانقضاض على العالم الإسلامي لأهداف وغايات معروفة.

3. فهم الخطاب القرآني في ضوء نظرية التلقي:

أصبح اهتمام المسلمين بنظرية التلقي ضرورة معرفية ومنهجية، لأن التلقي يدخل في صميم الثقافة الإسلامية وموروثها العلمي، تؤطرها عالمية الرسالة الإسلامية، ويفرضها واجب التدافع الحضاري، والدعوة إلى الله والحفاظ على الهوية الثقافية وتقويتها والدفاع عنها لقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُومِنُونَ بِاللَّهِ﴾[16] وتمكينها لمنطق تكامل الحضارات وحثها على التعايش والسلم والانفتاح على الآخر لقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[17] الأمر الذي يشكل تحديا لمثقفي الأمة الإسلامية اليوم أكثر من أي وقت مضى بالنظر للظروف الراهنة وواقع المسلمين في العالم، بإبراز حقائق الإسلام والدعوة إليه والقيام بواجب البيان والبلاغ والدعاية والإعلام. ومن بين هذه التحديات الاهتمام بكيفية تلقي وفهم الخطاب القرآني والعمل على إيصاله إلى الآخر عن طريق الثنائية (إرسال/تلقي) وآلياتهما وتقنياتهما المختلفة داخل منظومة ثقافية إسلامية ونسق إسلامي مستمد من الوحي يراعي ظروف التلقي ويسعى إلى تحقيق المقصد من التشريع الإلهي، ولتتحقق هذه الغاية لا بد أن تؤسس نظرية داخل النسق الإسلامي على أسس نظرية وقواعد علمية ليحدث التلقي سليما والتي يمكن حصرها فيما يلي:

1. اعتبار القرآن الكريم كلام الله تعالى مقدس ومعجز ومتعال عن الزمان والمكان؛
2. اعتباره كتاب حياة ومنهج اتباع واقتداء، له دور في تأطير الحياة عقيدة وتزكية وعمرانا؛

3. وصله بالواقع المعيش ومراعاة ظروف التنزيل وربطه بقضايا العصر (التجديد والاجتهاد)؛

4. التزام منهج الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في تلقي القرآن الكريم؛

5. تبني المنهج الاستنباطي (القراءة المقاصدية) في استمداد العقيدة والمبادئ والقيم والأخلاق من القرآن الكريم، وتأسيس المواقف عليها، بحيث يصبح أميرا يقتدى ويتبع في كل حال، فلا نقدم عليه عقولنا وأذواقنا أو نغلب أهواءنا، وبذلك نتجنب القراءات المنحرفة خصوصا المنهج الإسقاطي كما تم تفصيل الحديث عنه سابقا؛

6. وجوب استحضار ومراعاة خصوصية صاحب النص ومقصده من تنزيله، واستراتيجية الخطاب وواقع إنتاج الخطاب من جهة والنظر إلى المتلقي ومقصده وظروف تلقيه للخطاب وبذلك ينتهي بنا الأمر إلى تحقيق تلق سليم نقف به على جلال معاني القرآن وجمالها.

إن الناظر في الموروث الثقافي الإسلامي، يجد فيه عناية خاصة بالمتلقي (القارئ)، إما تصريحا أو تلميحا، فالدراسات البلاغية والإعجازية والتفسيرية تكاد تجعل منه محور العملية الإبداعية والنقدية باعتباره المستهدف، وإن كانت النظرة إليه حقيقة بشكل إيجابي باعتباره متلق إيجابي فاعل، لا تلق دائما نفس الترحيب، وتقابل بكبير نقد لأسباب كثيرة معتبرة، كما ورد في دراسة رجاء عيد للموروث البلاغي، مرجعا السبب إلى أن اختلاف الآراء على الرغم من إخلاص أصحابها فتتت المبحث البلاغي حين أغرقته في متاهات عديدة من حيث اللفظ والشرائط، أو لذلك الجو الأرستقراطي الذي كان يتعامل فيه الأديب مع السادة الأمراء والخلفاء والطبقة المرهفة من المجتمع، مع مراعاة أحوالها وما يليق في مخاطبيها.[18] وطبعا ما قاله رجاء عيد ومثل هذه الآراء بما فيها من جانب الصحة والصواب، لا يمكن القطع بها، إنما نعبر بها عن واقع مجتمعي في إطار نقد بناء، وأما في حالات أخرى عديدة فإنا نجد في تراثنا البلاغي اهتماما بالمتلقي، يدل على استيعاب رواده لمعادلة الثابت والمتغير، وأنّ ما ارتضاه الذوق في عصر لا يعني أنه انسحب بالقوة على ذوق عصر آخر، وأن كل مشروع علمي يستثمر في سياقه في إطار بناء حضاري متماسك، ومن أمثلة من استوعب القضية، أبو هلال العسكري(ت400هـ) الذي أثبت ذلك في مواضع متعددة من كتابه كتاب الصناعتين منها قوله: "واعلم أنّ حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ولا يكون الاسم فاضلا، ولا مقصرا، ولا مشتركا، ولا مضمنا؛ ويكون تصفحه لمصادر كلامه بقدر تصفحه لموارده؛ ويكون لفظه مونقا، ومعناه يسيرا واضحا، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم؛ وأن تواتيه آلته، وتتصرف مع أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظن بها مقتصدا؛ فإنه إن

تجاوز الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين، وإن تجاوز بها مقدار الحق في التهمة ظلمها وأودعها ذل المظلومين، ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل"[19]، وبعده الإمام الباقلاني(ت403) الذي حرّر في مستهل الفصل الأخير من كتابه إعجاز القرآن: "قد ذكرنا في الإبانة عن معجز القرآن وجيزا من القول، والكلام في أوصافه إن استقصي بعيد الأطراف، واسع الأكناف، لعلو شأنه، والذي سطرناه في الكتاب، فإنه ينبه على الطريقة، ويدل على الوجه، ويهدي إلى الحجة. ولولا أن العقول تختلف والأفهام تتباين، والمعارف تتفاضل لم نحتج ما تكلفنا؛ ولكن الناس يتفاوتون في المعرفة، ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا في معرفة هذا الفن، أو يجتمعوا في الهداية إلى هذا العالم، لاتصاله بأسباب خفية، وتعلقه بعلوم غامضة الغور، عميقة القعر، كثيرة المذاهب، وبحسب تأتي مواقعه تقع الأفهام دونه وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه، فإذا كان نقد الكلام كله صعبا، وتمييزه شديدا، والوقوع على اختلاف فنونه متعذرا، وهذا في كلام الآدميين، فما ظنك بكلام رب العالمين"[20] وهو ما نستطيع اعتباره من صميم اهتمام الدرس الأسلوبي الذي ينظر إلى الظاهرة الأدبية بأنها ظاهرة إبداعية تتكون من (مبدع/رسالة) الذي يجسد عملية الإبداع، ومتلقي وما يحدث بينهما من تأثير وتأثر وتفاعل سلبي وإيجابي وانفعالات ومواقف تبعا للسياق الذي ترد فيه بوسائل أسلوبية متعددة، تفرض الاهتمام بنفسية المتلقي ومراعاة أحواله وظروفه البيئية المحيطة.

وفي علاقة بما سبق ذكره، وجب التنبيه على أن إطلاق الأحكام بناء على معطيات جزئية مجافي للواقع ومجانب للصواب، وهو ما يبعدنا عن الموضوعية أحيانا ويسقطنا في الشعور بالدونية والانهزام من خلال استصغار أنفسنا وتجنينا على تراثنا العربي الإسلامي، وذلك لما نعلل اهتمامنا بالمتلقي ضرورة سياسية أو تصنيفا طبقيا ونحصره في هذا الجانب فقط، والأولى والضروري والملح الآن السير في مشروع البناء الحضاري الإسلامي عن طريق التجديد والاجتهاد مع تأطير كل عملية في إطارها الحقيقي العقدي والمعرفي والحضاري بصفة عامة.[21] وشأن الدرس البلاغي في ذلك شأن العلوم العربية الإسلامية الأخرى، لأنها نشأت جميعها لخدمة القرآن الكريم باعتباره كلام الله تعالى المطلق المتعالي عن الزمان والمكان، تستوجب التكامل المعرفي بينها، والتوفيق بين عالمي الغيب والشهادة وضبط علاقة الإيمان بالغيب والعلم وعمارة الأرض، وتعزيز ذلك الإيمان بالعلم والبحث في الطبيعة والإنسان كآيتين من آيات الله تدلان على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته. وهو ما يؤكد قاعدة أساسية تلزمنا في هذا المجال بالاهتمام أكثر بالمتلقي وبالنص (الخطاب الإلهي). وما استحضرنا الأسلوب اللغوي في هذا المقام إلا لنفهم نظرية التلقي فهما جيدا، ونقر أنّ المسألة مرتبطة بشكل أساسي بعامل اللغة التي يستعملها الناس ويتداولونها في بيئتهم التي يعيشون فيها سواء أكانت منسجمة

أو غير منسجمة ويتأثرون بها أثناء تلقيهم للخطاب بشكل إيجابي أو سلبي أثناء فهمهم لمضمون الخطاب القرآني وتنزيل مقتضياته في أرض الواقع، ليصبح بذلك المنتج المبدع فاعلا والمتلقي منفعلا في مستوى الإنتاج ابتداء، ثم تنقلب الأدوار في مستوى التلقي حيث يصبح المبدع منفعلا بما تستوعبه عقول الناس والمتلقي فاعلا، وبذلك ندرك أن عملية التلقي ليست قتلا للمؤلف كما يتبنى ذلك أصحاب المنهج البنيوي الشكلاني بقدر ما هي تفاعل خلاق وإيجابي بين المتكلم والمتلقي والرسالة.

الخاتمة:

وختاما، يمكن القول أنّ الاهتمام بالمتلقي وبنظرية التلقي حاضر في الثقافة العربية تصريحا أو تضمينا بنسب متفاوتة، لكنه لم يرق إلى مستوى التنظير الذي حققته هذه النظرية عند روادها من الغربيين. فقراءة القرآن الكريم عبادة ومسؤولية وأمانة فلا يجب بأي حال من الأحوال تحويلها إلى لعبة تأويلية تهدف إلى تغيير الواقع، وتزييف الوقائع، والتلاعب بالأفكار والقيم والمبادئ، وما يطمح إليه أصحاب القراءات المنحرفة إلى رفع القدسية عن كلام الله تعالى وإفقاد النص القرآني خصائصه المميزة ومعانيه المقصودة، وإعطاء مشروعية لنتائج قراءاتهم بما يتبناه أصحابها من مقاربات منهجية حديثة ومتعددة عن طريق كسب العوام بالعاطفة والتورية، والعلماء عن طريق القهر واستغلال المنابر وتعتيم أصواتهم في المجتمع وذلك بتسخير إمكانيات تكنولوجية وإعلامية وتواصلية جذابة وهائلة مسخرة للترويج لنسق ثقافي جديد في ظل الفراغ الذي تعيشه الأمة في إحياء التراث وتجديد الفكر.

الهوامش:

[1] القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير: محمد كالو، ص 56، دار اليمان، حلب، الطبعة الأولى 2013م.

[2] في ظلال القرآن: سيد قطب، ص 1431، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية والثلاثون 2003م.

[3] البرهان في علوم القرآن: الزركشي بدر الدين، 161/2، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة 1974م.

[4] سورة الإسراء: 36.

[5] سورة الحجرات: الآية 1.

[6] سورة البقرة: الآية 110.

[7] سورة المائدة: الآية 77.

[8] مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية تقي الدين، تحقيق عدنان زرزور، ص33، الطبعة الثانية 1972م.

[9] نظرية تشومسكي اللغوية: جون ليونز، ترجمة حلمي خليل، ص72، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى 1985م.

10 صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (رقم الحديث981).

11 صحيح البخاري: كتاب خلق أفعال العباد (حديث رقم 129).

[12] مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني عبد العظيم، 6/2، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1995م.

[13] هولب روبرت: نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، ص9، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى 2000م.

[14] المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم: إيكر خديجة، ص109، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، الطبعة الأولى 2012م.

[15] أبجديات البحث في العلوم الشرعية، محاولة في التأصيل المنهجي: الأنصاري فريد، ص42، منشورات الفرقان، 1997م.

[16] سورة آل عمران: الآية 109.

[17] سورة الحجرات: الآية 13.

[18] فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: رجاء عيد، ص 56، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية.

[19] كتاب الصناعتين: العسكري أبو هلال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص20، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى 1952م.

[20] إعجاز القرآن: الباقلاني أبو بكر، تحقيق السيد أحمد صقر، ص 99، دار المعارف، مصر، طبعة 2009م.

[21] المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم، ص 109.